Litrix.de
GERMAN LITERATURE ONLINE

GOETHE INSTITUT
Sprache. Kultur. Deutschland.

أمثلة من الترجمة

Jürgen Goldstein

Georg Forster
Zwischen Freiheit und Naturgewalt

Matthes und Seitz Berlin 2015

ISBN: 978-3-95757-090-1
صفحات 7-17 & 43-50 & 178-183

يورجن جولدشتاين

جيورج فورستر

بين الحرية وقوة الطبيعة

ترجمة: صلاح هلال

© 2015 Litrix.de

Leseprobe 1: Auftakt S. 7-17

من الصفحة 7-17

مقدمة

كلمة خطيرة: الطبيعة

عندما كان العالم ما زال كبيرًا وواسعًا وغير مُستكشف كان وزنه يُقاس بالخبرات. كان كل شيء جديد مهمًا، من أصغر حشرة في الغابة الاستوائية الممطرة، مرورًا بالجُزر التي لا ذكر لها في أي خريطة، وصولًا إلى قارات بأكملها حيث تنمو نباتات غريبة وتعيش حيوانات غريبة وأشخاص أغرب. لم يوجد شيء يفتقد الأهمية التي تجعله يُذكر في تقارير الرحلات. لم يكن كثيرون قد ارتحلوا حول العالم، وكانت الخرائط بها بُقع بيضاء أو تفقد أهميتها بسبب عدم الدقة. وكان للمكتشفين الأوروبيين الميزة السامية بأن أعطو أسماءً لخلجان وسواحل وجزر ونباتات وحيوانات لم يرها أوروبي قبلهم. وبدا العالم الذي جاء في السنوات التي تلت ذلك أصغر. عطور غريبة منحت الهواء حياة جديدة: كانت قيمة المسك تعادل قيمة الذهب، وكان موجودًا في جزر بعيدة في طرف العالم الآخر، في أندونيسيا المعروفة اليوم كانت زهور القرنفل العطرية المرغوبة. الكثير كان مجهولًا، لم يره أحد، ولم يتصور وجوده. لم يكن قادرًا على وصف الأشياء الجديدة إلا من رآها بعينه—أو كانت لديه قدرة جيدة على التأليف. لم تعد للمعارف التقليدية سوى قيمة محدودة، وكانت مخزنة في شرائح يعلوها التراب وتعاني من التكدس، كما كانت قيمتها تقل مع كل اكتشاف جديد. بعض النماذج كانت بمثابة المقياس للأشياء. وكما يترك الختم أثره في الشمع الساخن كانت بعض الانطباعات تؤثر في رؤية المراقبين لما يكتشفون من العالم. كان جيورج فوستر بمثابة الوسيط المنفتح تمامًا على مثل تلك الرؤى، فقد كان يهتم بأدق التفاصيل دون أن يفقد الصورة الكلية من أمام عينيه، كما كان لا يتردد في وصف ما تتركه الطبيعة في نفسه من أثر. كان فورستر على طبيعته وكان منفتحًا على كل ما هو غريب، كما كانت له قدرة لغوية كبيرة على التعبير عما يعيشه ويعايشه كما لم تكن لغيره، مما دفع جيورج كريستوف ليشتنبرج إلى تسميته: "ساحر النثر". كان فورستر ينتعش بقدر ما كانت الانطباعات تغمره، وكان يتحول إلى إنسان منهك وفارغ ومتعكر المزاج إذا لم يجد ما يراه. وعنه يدور هذا الكتاب، كما يدور حول علاقة أصبحت إمكانية وجودها باهتة، حتى أصبح الملأ يميل إلى الاعتقاد في أنها لم تكن يومًا قائمة، إذ لم تعد "الطبيعة" تتناغم اليوم مع "السياسة". ولكن هذا تحديدًا ما كان يشغل فورستر: حقيقة "السياسة الطبيعية" ومعها جوهر "الثورات الطبيعية" بوصفها بداية ظهور التقرير الذاتي للمصير، الذي من شأنه الانتصار على "شيطان العبودية الإقطاعية". يتحدث فورستر في نفس واحد عن "الحقيقة والحرية والطبيعة وحقوق الإنسان". وصف فورستر الثورات في الطبيعة مثل اندلاع البراكين وطغيان الفيضانات، كما تحدث عن الثورات بوصفها تقلبات ضرورية تعتري الأحوال

الاجتماعية. ولا يرى فورستر أن الأمرين منفصلين عن بعضهما البعض. وكما أن التقلبات الطبيعية لا تفتقد إلى وجود قاعدة تنظم دوراتها، فإن "الظواهر السياسية في لحظة ما ومكان ما من العالم يمكن ... أن تكون لها دورتها". كان فورستر يبحث عن القانون الذي من المفترض أن يربط الطبيعة بالحرية السياسية. كان لدى فورستر، بوصفه باحثًا في الطبيعة وهائمًا فيها، مفهومًا للطبيعة مشبع تمامًا بالمشاهدات: فقد رأى الطبيعة وتذوقها وشمها ولمسها وسمعها ورسمها أيضًا، قبل أن يفكر فيها. وكان رد فعله عليها دائمًا مفعمًا بالأحاسيس. لم تكن الطبيعة بالنسبة له شيئًا مثاليًا ولا مَهينًا، وإنما طاقة عظيمة مباشرة يمكن اختبارها. كان الفضل في مفهوم فورستر عن الطبيعة يرجع، بالمعنى الحرفي للكلمة، إلى ملاحظة العالم، ولم تظهر تأملاته حوله إلا بعد ذلك، عندما وضع مفهومه في مكانه من الإحداثيات الفكرية لعصره.

كانت المقومات التي انطلق منها في فهمه للطبيعة بناء على خبرته المباشرة جيدة: ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر قام جيمس كوك بثلاث رحلات بحرية حول العالم. وقد شارك فورستر مع أبيه يوهان راينهولد في الرحلة الثانية التي استمرت ثلاث سنوات وثمانية عشرة يومًا. كانت المسافة المقطوعة تعادل ثلاث دورات حول الأرض. وكان الرحالة أول من وصل بسفينته إلى القطب الجنوبي وتقدموا في اتجاه الجنوب لمسافة لم يسبقهم إليها أوروبي آخر. أبحروا في بحر الجنوب، وزاروا نيوزيلنده وتاهيتي وجزيرة الفصح وأرض النار وكاليدونيا الجديدة وجورجيا الجنوبية، وتعاملوا مع السكان الأصليين في بحر الجنوب، الذين لم يكن فورستر متيقنًا ما إذا كانوا وحوشًا نبيلة أم آكلي لحوم بشر. كما شاهدوا حيوانات غريبة، وأحضروا عند عودتهم إلى إنجلترا نباتات مجهولة معهم. كانت الطبيعة التي اكتشفوها خلابة. في نفس القوت ومع نهايات ذلك القرن كان هناك تحول سياسي يلوح في الأفق، تحول كان من شأنه تغيير نظام أوروبا باستمرار: أعلنت الثورة الكبيرة عام 1789 الحرية والمساواة لكل الناس وأنهت عهود الأنظمة الحاكمة المستبدة. وبدى الوقت مناسبًا لإجراء التغييرات، فقد أصبحت الممالك القديمة فاسدة وعفنة. كانت الثورة الفرنسية بمثابة زلزال هز أسس الحكم وأسقط عرش الاستبداد.

ولعلنا بالكاد نجد شخصًا شارك في الأمرين مثل جيورج فورستر، فقد اجتمع فيه كلا أهم إحداثيات عصره. وفي فكر وعمل ذلك الكاتب اللامع والباحث في الطبيعة والمكتشف والمترجم والرسام والثوري الحاسم يتلامس المفهومان الأساسيان لذلك العصر بصورة مبهرة: "الطبيعة" و"الثورة". لقد اكتسب فورستر مشاهدات ثرية للطبيعة في أثناء مشاركته رحلة كوك حول العالم. كما كان يقف في مركز الحدث السياسي حين نادى بقيام "جمهورية ماينتس"، أول جمهورية على الأرض الألمانية، عام 1793 متأثرًا بالثورة الفرنسية. لم يقم أحد بصورة مشابهة بخوض التجربة الغنية بالخبرات لربط الطبيعة بالسياسة في عصر التنوير. إن الشرارات التي أطلقها فورستر من تصوراته الأساسية عن "الحرية" و"قوة الطبيعة"

قد أوضحت للحظة في تاريخ العالم أنه يمكن أن يوجد شيء مثل الثورات الطبيعية. جيورج فورستر قد أسهم في تأسيس سياسة الحداثة، حتى ولو كانت رؤاه قد تحطمت على صخرة الواقع. إن حياة ذلك الحالم والمتفائل، ذلك الخاسر الذي كان يشك في نفسه، ووصف حياة ذلك الفنان اللغوي، المتحمس للقيام بالأفعال، والفاشل كبير الموهبة، الذي كان يعرف العالم ولا يجد لنفسه مكانًا فيه، يبدو أن تلك الحياة كانت تتكسر إلى شظايا لا حصر لها: هنا الباحث في الطبيعة، الذي اكتشف أطراف العالم مع جيمس كوك، وهناك الثائر صاحب الفكر الجمهوري. وعادة يتم التركيز على هذا الجانب أو ذاك من حياته، وكثيرًا يغلب الانبهار بالوصف المرئي لما عايشه في رحلاته. وأحيانًا يعالج كاتبو سيرته الذاتية كلا المجالين في حياته في تتابعهما التاريخي دون التعرض للرابط الحقيقي بينهما. في حين أن كلا المجالين لا ينفصلان عن بعضهما البعض لدى فورستر: إدراك الطبيعة والسياسة، مشاهدة العالم والثورة من أجل الحرية. وهذا ما أريد توضيحه في هذا الكتاب: كان جيورج فورستر باحثًا في الطبيعة وثائرًا في آن واحد، ومرتبطًا بالحياة الفكرية الألمانية لعصره. وبتأثير الإلهام الذي استحوذ عليه من خلال نظرته للطبيعة القابلة للاختبار في أثناء رحلته حول العالم، أراد فورستر عند عودته أن يبني نظامًا سياسيًا جديدًا—نظامًا بدا له طبيعيًا. عن طريق المصطلح المزدوج *الحرية وقوة الطبيعة* يمكن للمرء أن يظل ممسكًا "بخيط أريادنه" الذي يقودنا خلال متاهة حياة فورستر المتقلبة: من إدراكاته المبكرة للطبيعة وصولًا للثورة السياسية. لم ينحصر ما أنجزه فورستر على رحلته حول العالم على متن سفينة نقل فحم أعيد بناءها، ولكن في كونه ترك العالم القديم وراء ظهره وانطلق إلى فضاء الحداثة السياسية.

وأول نظرة سريعة للعلاقة التي افترضها فورستر بين الطبيعة وبين الحرية السياسية يمكن أن توضح غرابة وتفرد أفكاره التاريخية. حاول يوهان جوتفريد هيردر في أفكاره حول فلسفة تاريخ الإنسانية أن يرفع تاريخ الطبيعة إلى مرتبة التاريخ السابق على الحضارة الإنسانية.

فبعد أن شرح الأرض ووضعها في مجمل العالم ووصف عالم الحيوان والنبات تحول في البانوراما التاريخية التي قدمها إلى تأثير الظروف المناخية على المجتمعات الإنسانية وعرض الفروق بينها عن طريق نظرة مقارنة شعوب القطب الشمالي مع أفريقيا وأمريكا. وهنا نجد بالفعل تأكيدًا على السياق الذي يربط بين الطبيعة وبين الحضارة: "في الطبيعة الفيزيائية لا نعوِّل على حدوث المعجزات: نلاحظ قوانين نجدها مؤثرة وثابتة ومنتظمة في كل الأحوال؛ كيف؟ ومملكة الإنسان بما فيها من قوى وتغيرات وشغف هل يجب أن تخلص نفسها من قبضة سلسلة الطبيعة تلك؟" ويضرب هيردر مثالًا بليغًا بالحضارة الإغريقية التي لم تزدهر إلا تحت شمس البحر المتوسط. "إن كل تاريخ الإنسانية هو تاريخ الطبيعة الذي يحكي عن القوى البشرية والأفعال والغرائز تبعًا للمكان والزمان." إن قاعدية التأثير الطبيعي الذي

افترضها على تطور الحضارة لم تدفع هيردر إلى إنكار الحرية الإنسانية. والمناخ الذي اعتبر أن له أهم تأثير على الثورة الثقافية "لا يؤدي إليها بالضرورة وإنما يميل بها في ذلك الاتجاه". أي أن التأثيرات الطبيعية تولد ميلًا لدى الشعوب لبناء ثقافاتها الخاصة. ولكن تبقى حقيقة أن الإنسان حر، وأن الحضارة هي تعبير عن تلك الحرية تحديدًا. غير أن الإنسان ليس منفصلًا عن التعلق بالطبيعة بهذه الدرجة، كما كان يفترض التصور المثالي لوجود العقل المستقل في عصر التنوير.

لم تكن مثل تلك الأفكار غريبة. حتى أن جان جاك روسو انطلق من أنه "تكون لدينا في كل مناخ مقومات طبيعية يمكن تحديد شكل الحكومة بناء عليها". كما اعتبر مونتسكيو أن "العقل العام" لأي أمة يتشكل بناء على الدين والقانون ومبادئ الحكم وأمثلة الماضي والتقاليد وطرق السلوك ـ وذكر في المرتبة الأولى المناخ.

كان فورستر يفكر بطريقة مشابهة، فقد اعتقد أنه اكتشف "علاقة بين تغير فصول السنة والأخلاق". "معرفة الطبيعة"، حسب قوله، ليست ضرورية للحفاظ على الحياة الفزيائية ورعايتها وحسب، بل أيضًا "لبناء العقل والقلب"، لأن في آخر الأمر "كل ما هو أخلاقي له سبب مؤكد في موضع ما من الفيزياء". ربما يبدو ذلك بسيطًا في قراءته، ولكن هذه الصياغة تنطوي على أنثربولوجيا الطبيعة متطرفة: إذا قدمت الطبيعة للبشر في مناطق العالم المختلفة مقومات مختلفة فكيف ستؤثر تلك المقومات على تكوين استعداداتهم الإنسانية؟ وهنا يتساءل فورستر: "هل ستصبح ذرية الزنجي التي تولد له في انجلترا ذات نظام مختلف من الطبائع؟ والعكس، الأوروبي في البلدان الحارة؟"

ولكن فورستر يبني افتراضاته مثل هيردر انطلاقًا من أنثربولوجيا فيزيائية عن تنوع بناء الكيان البشري. والسؤال الرئيس هو: هل توجد قاعدة يمكن استكشافها تساعد في تحديد نظام لهذا التنوع وفهم تأثير الطبيعة؟ هل يمكن اكتشاف مبدأ تأسيسي للسياسة يكشف النقاب ليس فقط عن "روح العصر، ولكن أيضًا ملامح المستقبل؟" لم تكن تلك الأسئلة بالنسبة لفورستر أسئلة غير علمية خارجة عن الحدث السياسي لعصره. وضع فورستر تصوره الأنثروبولوجي بقصد برجماتي. ولفهم علاقات تطور مختلف الشعوب خطط لتأليف كتاب عن تاريخ الطبيعة، ورغم أنه لم يكتبه أبدًا إلا أن خطة الكتاب الأولية ظلت محفوظة. وفيها طرح التساؤل: "أليس من العجيب، أن يكون الدستور الإقطاعي لدى سكان الجزر، الملايو، هو الخطوة الأولى التي أقروها على طريق تحقيق نوع من الحرية الشعبية؟"

ربما يجب أن يكون السؤال هكذا: "هل كان للمناخ تأثير على تطلع الناس إلى الحرية؟ هل الطبيعة أساس من أسس السياسة؟ ما هي العلاقات المتبادلة بين الطبيعة والسياسة؟

ربما يبدو افتراضه خاطئًا وخصوصًا من منظورنا اليوم، حيث مهدت الثورات لفكرة استقلالية الشعوب، مما يتعارض مع فكرة تعلق ذلك بالطبيعة. كانت "الحرية" شعار العصر، وكان كانط، أهم مفكري عصر

التنوير الألماني، يركز على التضاد بين الحرية والطبيعة، فكان يقول: حيث توجد الطبيعة، ولو في ميولنا، لا توجد الحرية. فالحرية كانت بالنسبة له موجودة خارج حدود الطبيعة؛ أي، وفي كلمة واحدة: الحرية هي التقرير الذاتي للمصير. وبالتالي فالشعب الذي يستيقظ يطالب لنفسه بـ"الحرية الشعبية": يجب حماية المجال الخاص للحياة من تدخلات الدولة. وبصورة متزايدة أصبح يطالب بـ"الحرية السياسية" بوصفها مشاركة في القرارات السياسية وبصفة خاصة التشريع.

كانت الثورات تفهم على أنها الشواهد التاريخية للحق غير المعلن للشعوب لتقرير مصيرها ذاتيًا. مع ذلك كانت في القرن الثامن عشر فكرة تأثير الطبيعة على العمل السياسي مألوفة في علاقتها بالثورة. ولا يمكن تحديد مفهوم موحد للطبيعة في ذلك العصر، لذلك كانت الإشارة محقة أن مفهوم "الطبيعة" في عصر التنوير كان مفهومًا جامعًا لكثير من الرغبات المختلفة في التغيير، ومفهومًا "لمعركة نقد أوضاع تستحق النقد". كما اتضح أن "في إطار الثورة الفرنسية كان مؤيدوها وكذلك معارضوها يستندون على مفهوم الطبيعة". تضم موسوعة ديدرو ودالومبير مقالات عن "الحرية الطبيعة" و"المساواة الطبيعية"، كانت تجعل الثورة على القهر والظلم تبدو طبيعية. كان ساول أشر مقتنعًا بأن "الثورة السياسية ظاهرة طبيعية مثلها مثل غيرها". و"مسار العقل البشري، وأساسه الطبيعة"، يقف ضد الدول الاستبدادية، "لأنها تتصرف ضد أغراض الطبيعة، وبالتالي يجب أن يتبع ذلك ثورة". وفي مقابل ذلك كان إدموند بوركه، أحد أشد معارضي الثورة الفرنسية، يرى أن الثورة "خروج على كل مسارات الطبيعة". وكان يقول أن الأمة الفرنسية قد حصلت بذلك على تصريح بـ"الفجور الشديد، والفساد الذي لا يُرجى شفاءه، والتمرد القاسي الغاضب المنطلق"، كما لم يحدث مع شعب آخر من قبل: "وكان ذلك طبيعيًا." في حين أن الثوار كانوا يريدون في رد الحق للطبيعة في مواجهة تزايد الانهيار في المدنية الحديثة. زرع "أشجار الحرية" التي تزينها الأشرطة بالألوان الثلاثة وقبعة الحرية، كان الرمز الملموس للتجديد الطبيعي للمجتمع عن طريق التطور الحر لقواه. ويقال أنه تم زراعة 60 ألف من تلك الأشجار الموهوبة للحرية في فرنسا الثورة من أجل "إعادة المجتمع إلى الطبيعة في ضوء البستان المقدس". أي أن سواء من كانوا يؤيدون الثورة أو يعارضونها ادعوا أن الطبيعة تقف إلى جانبهم. وبدت الطبيعة ـ سواء كانت طبيعة البشر أو المجتمع الطبيعي أو الطبيعة "في حد ذاتها" ـ مرنة بما يكفي للتكيف مع التصورات السياسية المختلفة، حتى المتعارضة منها، مما جعل مفهوم الطبيعة متعدد المعاني حُجة قاطعة. ولكن من خلال الخلافات التي كانت تعتري فكر العصر المتصارع كان مفهوم الطبيعة مفهومًا كهروستاتيًا. من كان يملك الطبيعة إلى جانبه، كان بإمكانه أن يطالب بقوة بكل ما ليس في يده. أصبحت الطبيعة قوة لشرعنة الادعاءات والمطالبات في كافة مجالات الحياة. سجل يوزيف يوبرت بإحساسه العالي بعصره في يوم 10 يونيو 1800 في دفتره: ربما تكون "الطبيعة" قد أصبحت واحدة من أخطر كلمات اللغة الفرنسية.

استقى فورستر مفهومه عن الطبيعة من تصور دقيق للتطور الاجتماعي يمكن أن يُغضب أي مُنظر سياسي ينطلق من وجود سياق يجمع الواقع العملي بالعقل. توجد ملحوظة في كتابات فورستر عن طبيعية الثورة الفرنسية الكبرى، وهذه الملحوظة في ذكرياته من عام 1790 غير لافتة للنظر رغم أهميتها المحورية، وهي تقول: "ثورتكم صنعت نفسها بنفسها ...". وفي هذه الملحوظة قوة نعجز عن إدراكها. تحدث الثورة، في رأي فورستر، وكأنها قوة من قوى الطبيعة التي تشق طريقها ولا يمكن إيقافها: الطبيعة ـ بما في ذلك توغلها في الحدث السياسي ـ هي قدر محتوم علينا. حتى في رسالته قبل الأخيرة من 29 ديسمبر 1793، قبل أيام من وفاته، كتب: "الثورة إعصار، ومن يمكن إيقافه؟ وعندما تحرك إنسانًا، فإنه يكون قادرًا على فعل أشياء، لا يمكن للمرء لاحقًا استيعابها من شدة فظاعتها. ولكن معيار العدالة هنا أعلى من أن يدركه البشر. ما يحدث، يجب أن يحدث. وعندما تمر العاصفة، يمكن أن يستريح الناجون ويستمتعون بالهدوء الذي يتبع العاصفة." هل مثل تلك المقاطع مجرد تعبيرات بلاغية؟ أم يجب أخذها على محمل الجد أكثر مما يبدو لأول وهلة؟ إن التعبيرات البلاغية التي تعبر عن ثورة تحركها قوة الطبيعة تنتج عن فكر لا يرى حدودًا لا يمكن تخطيها بين الطبيعة وبين السياسة . وإذا بحثنا عن شخص يمنح تلك الفرضية الجريئة قيمة أعلى فسنجد ذلك في الشاعر جوته. تحديدًا جوته! ولأنه كان معارضًا للثورة فقد ذمّ فيها كونها ضد الطبيعة، لأنها لا تفي بنموذج النمو التدريجي للقوى المثمرة.

كانت أفكار فورستر السياسية متوافقة مع عمليات تطور الطبيعة. ومع ذلك رأى أن الثورة الفرنسية ومصير الملك لويس السادس عشر الذي تم إعدامه "ضرورة طبيعية"، فقد كان المحرك لذلك "الطبيعة وليس ما يدعي الفلاسفة أنه كان الحرية". وسنعود لذلك بعد قليل. كانت النتائج، التي وصل إليها فورستر انطلاقًا من طبيعية الفعل السياسي، كارثية. والأسوأ: في آخر الأمر لم يعد يفهم عالم السياسة تمامًا، فقد تخلت عنه الطبيعة. وقاده طريق الخبره والفكر الذي سلكه من مراقبة الطبيعة إلى تطرف في العمل السياسي واجه معارضة مستمرة وجعله منبوذًا. أراد أبوه ـ إذا صدقنا ما كتبته زوجة فورستر ـ "أن يرى ابنه معلقًا في المشنقة". وقليلون بقوا على العهد في النهاية. "وهكذا كان على فورستر المسكين أن يدفع حياته ثمنًا لأخطاءه! حتى وإن أفلت من ميتة شنيعة!" هكذا وصف جوته موت فورستر، وأكد أنه "حزن بشدة على موته". الفضل الذي ندين به لأولئك الذين ساروا في طرقات فكرية لا مخرج منها، هو أننا لن نضطر إلى تجريبها. ويمكن قراءة كتابات فورستر بوصفها وثائق سيرة ذاتية لفكر متفتح يعكس ثراء خبارتي لا يقارن ومحاولات لإعادة فهم الفعل السياسي بصورة مختلفة. ولا يدور الأمر هنا حول مسار حياة شخصي وخاص. عرض العقود القليلة التي عاشها فورستر، الذي مات في عمر 39 سنة فقط، تهدف إلى توضيح "سيرة تطور" تدور حول العلاقة بين الخبرة وبين العمل، وبين المعايشة وبين الفكر، وبين الطبيعة وبين السياسة.

ويبدو لي من الأفضل أن أعالج حياة فورستر، كما فعل ببراعة هانس ستيليت مع ميشيل مونتاني، وبالتالي أن أعرض حيويته بحيوية وحكاياته بصورة حكائية". لم تكن مصادفة أن يختار فورستر البارع في كتابة الرسائل طريقة الرسائل لكتابة كتبه، "لأنها تجعل القارئ يستحضر الأحداث بصورة أفضل". كان فورستر يضع القارئ طوال الوقت نصب عينيه، وكان يحاول الوصول إليه دائمًا عن طريق كتابته النثرية الواضحة والراقية والمفعمة بالحياة. وكان يهدف دائمًا للتأثير عليه، ولذلك تبدو كتاباته وكأنها استكمال حواري لمراسلاته. تقدم تقارير رحلاته "صورًا للطبيعة، لا تتحول إلى صور جوفاء"، كما أن الحكي المفعم بالحياة يصبغ طريقة تفكيره في رحلته حول العالم وصولًا إلى وصف الثورة في ماينتس، وإذا أردنا تتبع خطى فورستر، فعلينا تتبع ذلك. فضلًا عن ذلك كان فورستر قارئًا نهمًا، استطاع عبر السنين أن يحتوي قارات من الثقافة. وصف فورستر مشروعه لكتابة "كتاب ضخم" بأن لديه " محيط من العبارات على أهبة الاستعداد". وهكذا تكون حال من يرغب في الكتابة عن فورستر. أود أن أترك لفورستر الكلمة بإسهاب وألا أدخر في ذكر اقتباسات من كلامه، فهو الكاتب الكلاسيكي في تاريخ الفكر الألماني الذي قلما يقرأه أحد. كما أنه مكسب كبير أن نستمع إلى كلماته كما قالها. يمكن توضيح صورة خبراته وتأملاته من خلال عرض صورة مجمعة لمقولاته الأساسية حول موضوع مهم، التي نجدها في المحيط الزمني لأعماله التي نعالجها هنا ـ وبالأخص من مراسلاته الضخمة ويومياته وكذلك أيضًا من مجمل أعماله. لم يكن فورستر بالفاعل الذي تحركه الأفكار، فقد كان يتصرف بحسم، كلما كانت معايشاته أكثر عمقًا: كانت الخبرة والعمل تمثلان بالنسبة له "مدرستا الإنسانية الكبيرتين". ورغم أن فكره كان يحاول الجمع بينهما، إلا أنه يجب عدم اختصار ذلك في صورة نظرية أو "موقف". لم يكن فورستر منظرًا ولا فيلسوفًا، بل كان يسمح لنفسه "بالتفلسف بطريقة غير فلسفية".

كان المقال الشكل الأدبي الذي يفضله. أتاح له التفكير المقالي التأمل دون الالتزام بنظام، والتفكير دون الالتزام بمعيار عدم التضارب بين الأفكار. وأخيرًا تربية القارئ ليصبح ناضجًا، لأن عليه التفاعل مع ما يقرأ بصورة حوارية، دون قبوله من غير فحص وتمحيص. وقد برع فورستر في التعامل مع إمكانات التفكير المتحررة. وقد أثنى فريدريش شيلر على ذلك، رغم معارضته لكثير من أفكار فورستر: "حتى أراءه غير المقبولة تمامًا كان يصيغها ببراعة وحيوية كانت تمنحني متعة فائقة وأنا أقرءها". إذًا ينبغي للمرء ألا يقع في إغراء تعظيم فورستر انطلاقًا من عملية منهجة لاحقة لأفكاره، فقد كان فورستر يستغل "الحق السامي" للإنسان "في أن يكون غير متسق وغير متوقع!" وكان في ذلك واعيًا بحدوده وعيًا تامًا: "أنا إنسان بسيط، ولي تركيبة خاصة تعود لطبيعتي وتربيتي وقدري ومرضي، لذلك فأنا محدود، لأن ما أرغب فيه لا يتوافق مع مع ما أريده." عرّف فورستر نفسه بأنه إنسان متوسط، في حين كان يعيش في عصر طاب للناس فيه الحديث عن "العباقرة". ولكن الملفت للنظر كانت رؤاه للعالم وتوغلاته في

مسارات السياسة المعاصرة وأخيرًا تمكنه من الكلمات، وقدرته على التعبير عن كل ذلك في لغة حكي مبهرة.

كان فورستر في الحقيقة مثل الصفحة البيضاء، قبل أن ينطلق في رحلته حول العالم وهو في سن مبكرة، حيث ركب على متن سفينة "ريزوليوشن" وهو في سن السابعة عشرة. واحتاج منه الأمر عمرًا كاملًا لاستيعاب الانطباعات التي جمعها في رحلته. قام فورستر بدراسة الطبيعة لاحقًا، لأن ذلك كان يحتاج إلى "هدوء ووسائل مساعدة وفرصة سانحة، لا تواتينا إلا بضربة حظ. كرّست سنوات شبابي لذلك العمل المبهج؛ فقد انفتحت أمامي أكبر ساحة يمكن لإنسان أن يدخلها ليشاهد عجائب الوجود الموضوعي: لقد أبحرت حول العالم. أدين بالفضل لتلك الرحلة البحرية في تفتح طبعٍ بداخلي كان يحدد اتجاهي منذ طفولتي، ألا وهو سعيي لاستعادة عموميةٍ معينةٍ لمفاهيمي، وربطها مع بعضها البعض في وحدة واحدة، وبالتالي منح معرفة الكُل مزيدًا من الحياة وحقيقةً متسقةً مع ذاتها في داخلي." لا تحتمل "معرفة الكل" التخصيص، ولا رغبة معرفية متعجلة، ولا عملية مسح ممنهجة. لذلك سيكون هدف الجزء التالي هو تتبع "تطور ذلك الطبع"، الذي قاد فورستر من ملاحظة الطبيعة إلى الثورة السياسية، كما دفعه في ذات الوقت ليعبر عتبة العالم القديم إلى الحداثة السياسية. وسأقوم بذلك عن طريق تتبع سيرة فكره التي كانت خبراته تحركها من خلال أعماله الضخمة: كتبه المهمة ومقالاته المثيرة للاهتمام والأخرى المهملة، وما كتب عنه، وخطبه ويومياته وأخيرًا رسائله التي فاقت الألف، كلها سترسم خريطة لفكره وخطوط الطول التي رسمت مسار حياته.

نيو يورك، في شهر 2012 يوت. جى.

Leseprobe 2: S. 43 (Das Meer) bis S. 50 (" ... bis ich nichts zu verlieren habe.")

من الصفحة 43-50

البحر

يجب فهم أن أوديسيوس عندما ضل طريقه كان ذلك عقابًا على ذنب ما تسبب في لعنه لسنوات طويلة، مما تركه نهبًا لقوى البحر دون حماية ودون أن يصل للوطن المنشود، لأنه حسب علم الكونيات الإغريقي كان قد فعل خطيئة، إذ كانت رحلته المشوبة بالمخاطر والأهوال نتيجة لانتهاكه حد من الحدود. من يجرؤ على خوض غمار البحر يترك وراءه مجال الحياة المخصص للبشر. يقول هانس بلومنبرج: "من بين العناصر الأساسية التي يتعامل معها الإنسان ـ على الأقل حتى تم اكتشاف الطيران ـ كان البحر أقلها فظاعة. كان البشر يعتقدون في وجود قوى وآلهة مسؤولة عن حمايتهم من تأثير قوى الطبيعة العنيدة. تأتي الوحوش من المحيط الذي يحيط بالعالم المأهول، وكانت تلك الوحوش أبعد ما تكون عن المخلوقات المألوفة في الطبيعة، ويبدو أنها لم تكن على دراية بالعالم بوصفه كونًا. ومن أفظع ما ارتبط بذلك كانت الظاهرة الطبيعية التي لم يوجد ما يفزع أكثر منها، ألا وهي الزلازل التي كانت في الأساطير من اختصاص إله البحر بوسيدون."

يعني الإبحار دائمًا ترك الأرض الثابتة التي تحت أقدامنا، وإذا فسرنا ذلك مجازًا، فإن البحر هو علامة على ما لا يمكن توقعه. ومن قصص نجاح توسعة مجال الحياة نجد منذ العصر العتيق حكايات عن نجاح الإنسان في دمج البحر المتوسط في المنطقة الثقافية الخاصة. كان الرومان يسمون البحر المتوسط "بحرنا"، ليس فقط للتعبير عن مجال سلطتهم ولكن أيضًا لتوضيح أنهم أصبحوا يألفون هذا البحر. وكانت التجارة في البحر المتوسط والصيد وحتى الحروب البحرية بمثابة محاولات "لأنسنة" البحر، وقد امتدت تلك المحاولات بعد ذلك لتشمل مناطق خارج البحر المتوسط. كان الإبحار في المحيط لفترة طويلة من الأمور المخيفة. كانت "أعمدة هرقل"، التي كانت تفصل البحر المتوسط عن المحيط الأطلسي عند منطقة مضيق جبل طارق، كانت تمثل حدود العالم الذي كان يُنصح الناس بالتحرك في داخلها. ولم يكن معلومًا ما وراء تلك الحدود، ومن كان يجترئ عليها كان يُتهم بالسفه. كما تشير الحكاية الواردة في العهد القديم عن ليفياثان، وحش البحر الذي لا يقدر على التصدي له إلا الرب، إلى تلك الحدود التي يتخطاها المرء إذا خرج عن حدود البحر المتوسط التي أصبحت بشكل أو بآخر مألوفة.

ويبدو أن الشاب جيورج فوستر لم يكن يعرف من ذلك شيئًا حتى يستشعر خصوصية تلك اللحظة وهو يغادر ميناء بليموث في 13 يوليو/ تموز 1772. وأخيرًا وليس بآخر تلك ذلك الشاب ابن السبعة عشرة عامًا أمه وأخته وحيدتان، دون أن يعلم يقينًا إذا كان سيراهما مجددًا: "ألقيت نظرة وداع على تلال انجلترا المثمرة، وتركت العنان لأحساسي الطبيعي بالارتباطات، التي ذكرني بها ذلك المنظر"، واغرورقت عيناه بالدموع. وكانت فنارة إديستون على صخرة في وسط البحر آخر شواهد العالم القديم الذي أخذ ينظر إليه حتى اختفى وراء الأفق. وكانت رحلة إلى المجهول. لم تكن العودة وحدها غير مؤكدة، بل ورؤية من تركهم خلفه مجددًا، وفي ذلك كتب فورستر في أواخر الرحلة: "من يترك خلفه أقرباء وأهل يخشى أن يموت أحدهم في أثناء غيابه، وكان من المتوقع جدًا أن يتسبب ذلك الفراق الطويل في إنهاء بعض الارتباطات الغالية، وخفض عدد الأصدقاء ويخطف منا ما نجده منهم من سلوى وحسن عشير."

إلا أنهم عندما وصلوا إلى البحر المفتوح وضع تلك المخاوف جانبًا، حيث كتب في مذكرات رحلته، قريبًا "ستغلب بهجة الصباح الجميل وحداثة رحلتنا عبر البحر الذي لا يزال هادئًا" وستبدد "تلك الأفكار الحزينة". وهل توجد مشاعر أخرى يمكن أن يعبر عنها المرء وهو ينطلق إلى المجهول ليكتشف العالم

ويترك من أجل ذلك خلفه كل ما ألِف؟ ولكن البحر لم يبق هادئًا طويلًا، فقد اشتدت الأمواج العاتية، وأصاب فورستر، الذي لم يبحر في حياته إلا في بحري الشمال والشرق، الهلع والدوار. حتى في رحلاته البحرية اللاحقة كان يصيبه الدوار: "يتسم دوار البحر بشيء مروع، إذ يجعلني لا أبالي بالعالم من حولي". ثم اعتاد على حركة الأمواج في آخر الأمر، كما لم يخف عليه طوال الوقت مدى خطورة رحلة كوك الاستكشافية. حتى وهم مازالوا في ميناء بليموث كادت تحدث كارثة، عندما انقطع الحبل الذي كان يثبت السفينة "ريزوليوشن" وتحركت في البحر باتجاه الصخور التي كادت أن تحطمها. ولكن في آخر لحظة نجح البحارة في إبعادها عن الصخور وتفادي الكارثة. "وكم تعرضنا في معرض تلك الرحلة إلى أحوال وأهوال، ما كان لمساعدة البشر أن تنقذنا منها، لولا أن حسن طالعنا كان تحت رقابة أعلى، لولا عنايتها لما بقي من رؤوسنا شعرة واحدة". ولعل رحلته حول العالم، حين كان ينظر إليها لاحقًا، "سارت تحت عناية إلهية"—وقد رأى فورستر ذات مرة وبطريقة مقلقة كيف أن مثل تلك الأمور تعتمد على "قوة أعلى"، وليست في يد البشر وحدهم. يبدو وصف فورستر للعواصف التي قاومتها سفينتهم على مدار ثلاث سنوات وكأنه وصف لمعركة، وكأن البحر كان يريد معاقبة هؤلاء الدخلاء على تخطيهم الحدود، لذا لعب معهم كما الهرة مع الفأر: "كان المحيط غاضبًا من حولنا، وكأن وقاحة حفنة البشر، الذين تجرأوا عليه، قد أثارت حنقه"، هكذا وصف فورستر عاصفة في يناير/ كانون الثاني 1774. في أثناء تلك العاصفة "ضربت موجه عالية كالجبل وسط السفينة في التاسعة مساء، وملأ الطوفان جميع أركانها بالماء. ودخل الماء علينا من كل ثغر وأطفأ الأنوار، وتركنا حائرين لبعض الوقت، لأننا ظننا أن الطوفان قد طغى علينا وأننا نغرق." ولعبت الأمواج بالسفينة وكأنها كرة، ونجت السفينة من التحطم بأعجوبة. ويصف فورستر عاصفة أخرى في شهر أكتوبر/ تشرين الأول 1773 أمام سواحل نيوزيلاندا بأن البحر بدى وكأنه قد قرر القضاء على المكتشفين. ويصف فورستر في مقطع طويل تلك الدراما التي عاشوها على ظهر البحر، وذلك من خلال جُمل قصيرة وامضة ولاهثة: "رغم أننا كنا قد توقفنا على مقربة كبيرة من الساحل، حيث يفترض أن تحمينا الجبال العالية، إذا بالأمواج تعلوا بشدة وقوة حتى أنها حين كانت تتكسر في العاصفة كانت تتحول إلى ضباب. وانتشر ذلك الضباب فوق سطح البحر كله، ولأن السماء خلت من السحب فقد ظهرت الشمس جليّة ولامعة، وكان البحر الممتلئ بالزَبَد يحجب الرؤية لحد بعيد. ثم اشتد الريح غاضبًا حتى مزّق آخر شراعنا التي تجرّءنا على تركه منشورًا. ومن ثَم أصبحنا لعبة الأمواج، التي كانت تتقاذفنا مرة هنا ومرة هناك، وكانت أحيانًا تضرب بعنف سطح السفينة محطمة ما تجده في طريقها من الأشياء. وبسبب حركة السفينة وتقاذفها يمينًا ويسارًا تضررت الحبال وصاري السفينة بشدة، كما تضررت الحبال التي كانت تثبت الصناديق والحاويات وتقطعت في آخر الأمر، مما جعل كل الأشياء تطيح في ذلك التيه وتقع علينا ومن حولنا. وفي إحدى المرات تحركت السفينة بشدة فاندفع صندوق الأسلحة الذي كان مثبت على الجزء الخلفي من السفينة واندفع في اتجاه السور الجانبي للسفينة، حيث كان يقف في تلك اللحظة رفيقنا في السفر الشاب، السيد/ هود. ولم يتبق له بالكاد وقت لينحني متفاديًا الصندوق، وإن كان حتى ذلك ما كان لينجيه، لولا أن الصندوق اندفع مائلًا في ليستقر فوق ثغرة في السور، استطاع السيد هود لحسن الحظ أن يبقى فيها دون أن يمسه ضُر. ورغم تدافع الأشياء بذلك العنف، إلا أن ذلك لم يزعج الطيور، الذي ظل سرب أسود منها يحوم فوق سطح البحر الهائج، محاولًا بطريقة فنية رائعة أن يحتمي وراء الأمواج العالية من العاصفة. كانت رؤية المحيط رائعة ومروعة في ذات الوقت. سريعًا رأينا من خلف قمة موجة عريضة وثقيلة عرض البحر اللانهائي وأخاديد عميقة لا عد لها ولا حصر، وسحبتنا موجة هادرة معها وألقت بنا في وادي وعر ومخيف، إلا أن الريح قد دفع مجددًا من الجانب بموجة جديدة كالجبل، يعلوها زبد، كادت أن تغطينا. وازدادت تلك المخاوف باقتراب حلول الليل، وخصوصًا بالنسبة للأشخاص الذين لم يعتادوا ارتياد البحر من صغرهم." وازداد الخطر عندما اختفت سفية "أدفينتشر" عن نظرنا، فقد كان كوك اختار لأسباب أمنية الإبحار بسفينتين. وهنا أيقن بحارة السفينة "ريزوليوشن" أن "عليهم الإبحار وحدهم في هذا المحيط المجهول، صعب المراس".والمجد الذي كانوا يحلمون به عند الرجوع جعلهم ينسون احتمالية عدم تمكنهم من الرجوع. كان الإبحار حول العالم بسفينة

نقل فحم مُعدلة أمرًا غير هيّن. والاعتماد على أنفسهم فقط زاد من المخاطر، لأن سفينتهم إذا تضررت فلن يكون لديهم فرص أخرى. وبعد إبحارهم من نيوزيلندا في نوفمبر/ تشرين الثاني 1774 اكتشفوا ثقبًا في السفينة، "لكننا لم نقلق حيال ذلك، لأن الماء لم يرتفع في ثمانية ساعات سوى خمس أو ست بوصات في الغرفة السفلية"، حسب ما كتب فورستر لاحقًا وهو يهون من الأمر. ومرة ضربت عاصفة قوية فأمر كوك بتعليق سلسلة نحاسية على قمة الصاري تمتد على السور الحديدي للسفية نزولًا إلى البحر. وفجأة "ضرب برق قوي، رأيناه بوضوح وهو يسري في السلسلة نزولًا إلى الماء، ثم تبعه مباشرة صوت رعد فظيع. واهتزت السفينة بعنف جعل كل من على سطحها يفزع بشدة، ليس فقط من كانوا معنا من سكان تاهيتي، بل أيضًا نحن الآخرون". وكان البحر هائجًا حتى أن سفينتنا مالت حتى أربعين درجة.

وفي ذات مرة دفعهم الموج إلى جزيرة، كانت سواحلها "تتكون من صخور سوداء عالية تكاد تكون رأسية". ولأنه لم يكن هناك ريح فقد كانوا لعبة في يد الأمواج: "تقاذفت الأمواج السفينة في حركة شبه دائرية، مما جعلها تواجه الشاطئ مرة بجانبها ومرة بمقدمتها ومرة بمؤخرتها. كم كان صوت الأمواج عند ارتطامها بالصخور مخيفًا! لم يكن هدير الأمواج مرعبًا لنا كما كان يومها، لأنها لم تهددنا بصورة واضحة هكذا من قبل. وأخيرًا دفعنا تيار الماء بعيدًا عن الأرض بمسافة صغيرة ولكن دون خسائر."

ما نسميه في القرن العشرين "تجربة وجودية" كان حدثًا متكررًا في أثناء الرحلة التي امتدت ثلاث سنوات حول العالم. كانت نقطة الضعف في الرحلة ـ بغض النظر عن صحة المسافرين ـ السفينة نفسها. كانت العودة تتوقف على سلامة الفريق. ذات مساء فزع الجميع عندما دق إنذار الحريق: "قرابة العاشرة مساء حدثت ضوضاء لوجود حريق على ظهر السفينة! وهذا الخبر السيء أشاع على الفور حالة عامة من الفزع؛ في كل مكان كانت الوجوه مقفهرة، واستمر الأمر فترة ليست بالقصيرة حتى بدأت الإجراءات الأولية لإطفاء الحريق. إن لحظة الخطر المحدق غير المتوقعة تجعلنا عادة غير قادرين على التفكير السريع أو التصرف الفعال. وفي هذه الحالة يكون لحضور العقل والحزم قيمة كبيرة، ولكنها تكون صفات نادرة، لذلك لم يكن من العجيب أن يفتقد بعض من العدد القليل المسؤول عن قيادة السفينة لتلك الصفات أكثر من غيرهم. ولكن ربما لا يوجد اختبار أصعب للأقوياء من أن يجدوا أنفسهم في سفينة تحترق!

حتى العاصفة التي تضرب سفينة بالقرب من ساحل خطر لا تكون مفزعى هكذا، لأن المرء يظل يأمل في أن ينجو بحياته على الأقل. ولكن اليوم عندما عمّ ضجيج الحريق غلب الفزع على كل شيء. وعند الصدمة الأولى اعتقدنا أن النار قد اندلعت في غرفة مليئة بالأشرعة؛ إلا أننا اكتشفنا أن الحريق اندلع من مصباح السيد كايوته المسؤول عن مؤن الرحلة، وكان مصباحًا تاهيتيًا، واكتشفنا أن الدخان المتصاعد هو الذي جعلنا نتوقع كارثة أكبر". وبدت قوى الطبيعة وكأنها قد انفكت من عقالها عندما رأو في شهر مايو/ أيار 1773 أربع دوامات مائية على بُعد أقل من خمسة كيلومترات وهي تقترب من السفينة. وعلى مسافة عدة مئات من الأمتار بدأ البحر في "التحرك بعنف" بالقرب من السفينة، حسب وصف فورستر: "تموج الماء في مساحة حوالي تسعين إلى مائة مترًا حول نقطة في منتصفه، ثم تبخر إلى ضباب، وتسببت قوة حركة الدوامة في جعله يدور بعنف ليصبح على شكل عمود يرتفع إلى السحاب بقوة. في ذلك القوت تساقطت قطع الثلج على السفينة وبدت السحب فوقنا مرعبة وسوداء وثقيلة". واستطاعوا رؤية "كيف تنتزع الدوامة الماء بعنف". وعندما انكسرت حدة آخر دوامة رأوا برقًا ولكنهم لم يسمعوا رعدًا. "طوال ذلك الوقت كنا في حالة من أشد الحالات خطورة وإقلاقًا"، لدرجة أن حتى "أسنُّ البحارة أصابتهم الحيرة" بسببها.

تركت مثل تلك المواقف أثرها على فورستر، ولا نبالغ إن قلنا إن البحر قد دفعه إلى أقصى حدود قدرته النفسية على التحمل. أصبح البحر يمثل له عين الموت والهلاك. ولكنه نجا. ولكن على الأقل مع كل تلك المخاطر لم تواجههم أية وحوش بحرية. ومن أكثر المواقف المؤثرة في عالم الحيوان الغريب كان رؤية حوالي ثلاثين حوتًا، اقترب أحدهم مئاتي قدم من السفينة. وغير عابئ بحجمهم تعجب فورستر "كيف كانوا يقفزون من الماء ويسقطون محدثين أمواجًا قوية تملأ ما حولهم بالزبد". وكان لذلك الموقف أثر لاحق، ففي أبريل/ نيسان 1790 شارك فورستر في رحلة ألكسندر فون هومبولت في نهر الراين، ورأى لأول مرة بعد اثني عشرة عامًا عند دونكيرشن البحر مجددًا. "وأيقظ المشهد تصورات لا عد لها!"، كما كتب لزوجته. هزت رؤية البحر أعماق فورستر وجعلته يفكر في الموت. ذلك الرجل الذي يتمتع بخبرة عالمية خاف من البحر، ذلك العنصر الخارج عن السيطرة، وكأن معايشاته الماضية عندما أبحر إلى حافة الحياة قد استحوزت عليه بقوة. "لا أستطيع أن أصف لكِ ما ألم بي في تلك اللحظة"، حسب ما كتب في الفصل العشرين من مشاهداته في نيدرراينفورت ليصف لزوجته وللقارئ ما كان يشعر به. "مستسلمًا للانطباعات التي أيقظها في هذا المنظر غطست رغمًا عني في أعماق نفسي، ورأيت أمام روحي صورة السنوات الثلاثة التي قضيتها في المحيط والتي شكلت كل قدري بعد ذلك. تستحوز رؤية البحر العجيب على الرائي بغموضها وعمقها أكثر من نجوم السماء. هناك على ذلك المسرح الهادئ الساكن تلمع الأنوار الأبدية التي لا تنطفئ، ولكن هنا على خلاف ذلك فلا شيء تمامًا منفصل عن الآخر؛ جسد واحد عملاق، والأمواج ظواهر عابرة." الأمواج "تتكون وترتفع ثم تتحول إلى زبد وتتلاشى؛ ويبتلعها البحر الضخم. لا يوجد مكان تكون فيه الطبيعة مخيفة مثلما هي هنا في قسوة قوانينها التي لا تعرف الهوادة، ولا يوجد مكان يشعر فيه المرء بوضوح ـ وهذا يسري على الجنس البشري كله ـ أن الفرد مجرد موجة تخرج من اللاوجود عبر نقطة من الوجود العابر لتعود بعدها مرة أخرى إلى اللاوجود، في حين يستمر الكل متماسكًا في وحدته التي لا تتغير." الإنسان الفرد كرة تلعب بها الطبيعة للحظة قصيرة. ربما كانت تلك هي الرؤية التي استحوزت على فورستر الذي اقترب من الموت، حين وقف على ساحل البحر: الطبيعة تعطي كل شيء وتأخذ كل شيء، إنها مقدسة وفظيعة، تحيي وتدمر. وليس لنا لمواجهة عنفها من سبيل. كتب فورستر لزوجته: "لن أركب سفينة مرة أخرى، إلا إذا لم يصبح لدي شيء لأخسره".

Leseprobe 3: S. 178 (Die französische Mainzer Freiheit) bis S. 183 ("… Er wird zum Revolutionär.")

من الصفحة 178-183

حرية ماينتس الفرنسية

عندما التحق فورستر بعمله في مكتبة ماينتس في أبريل/ نيسان 1788 لم تكن هناك أي بوادر لاضطرابات في تلك الإمارة على الإطلاق. بالتأكيد كانت هناك حفنة من الأساتذة الجامعيين ارتبطوا بالعقل النقدي من عصر التنوير. وبالتالي لم تكن ماينتس عُشًا مهجورًا، إلا أن هياكلها السياسية لم تكن تختلف عن بقية الهياكل التابعة للإمارة.

لم تكن ألمانيا في ذلك الوقت أمة موحدة، وإنما رقعة مفتتة من الدويلات الصغيرة المتباينة مذهبيًا وثقافيًا، دون وجود سلطة مركزية جامعة، رغم استمرار الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية حتى عام 1806. وتفاجأ فورستر عندما اكتشف أنه يوجد التزام جامد بالمراسم الملكية هناك، حتى أن "المرء يجب أن يرتدي البزه الرسمية عند تقديمه للأمير." كما أن طبقات المجتمع منفصلة بعضها عن البعض فصلًا تامًا، والهرم السلطوي لا يمكن تخطيه. وبالنظر إلى مكان السكن البسيط فقد هيأ فورستر زوجته فور وصوله ماينتس لتقبل العزلة الأسرية التي تنتظرهما، "لأننا حتى إذا دعينا إلى النبلاء فإنهم لن يردوا لنا الزيارة ويأتوا إلينا." كان دخله المتواضع من عمله البسيط في المكتبة لا يسمح له بالارتقاء إلى دوائر المجتمع الأعلى. "هنا وهناك غريبٌ ولي بعض الأصدقاء، هذا مجتمعي وحياتي." كانت حياته تدور في المجال الخاص "لأن خارج دائرتنا لا يوجد إنسان يفهمنا"، كما كتب فورستر لشيللر.

ورغم كل التنوير في عقله وروحه كان فورستر مضطرًا إلى الحياة في عالم سلطوي. توجد حكاية بسيطة توضح الهوة بين الأمير وبين من يعملون عنده. ففي رسالة إلى الأمير حول تجهيزات المكتبة توجه فورستر في 9 سبتمبر/ أيلول 1792 للأمير برجائه: "أن يقوم صاحب السمو الملكي بالتعطف والتكرم بإصدار أمر بالسماح بمنح مكتبة الجامعة الأميرية تمثالًا تذكاريًا خالدًا لسموه في قاعة المكتبة يذكر بالعطايا الممتدة التي يفيض بها عليها مؤسسها الثاني ومعيد بنائها وأبُ الوطن وحاميه والمحسن إلى العلم والفنون ... تمثالًا نصفيًا من الرخام لصاحب السمو الأميري على قاعدة جميلة وعليها نقشُ كريم."

في المقابل قام جوته في 17 سبتمبر/ أيلول 1826 في احتفالية بإحضار الجمجمة—المزعومة—لشيللر الذي مات في عام 1805، إلى مكتبة أنّا أماليا وضمها إلى تمثال شيللر النصفي ليوهان هاينريش فون دانيكرس. ورغم أن ذلك كان متفقًا عليه مع الدوق كارل أوجوست—حيث حصل جوته على "أمره وموافقته" أولًا، إلا أن ذلك حدث دون مكاتبات كثيرة. والفرق بين المشهدين يوضح التحول الذي حدث في ذلك العصر، فبينما طمح فورستر في ماينتس ما قبل الثورة ولأسباب تكتيكية في تمثيل الأمير بصورة رمزية في المكتبة بوصفها تمثيلًا مؤسسيًا لعالم الفكر، نرى استقلالية جوته في إحضاره لممثل الفكر الحر في ألمانيا، الذي لا مثيل له، ليقف شاهدًا في مكان العلم والتنوير. وفي حين يختتم جوته خطابه للدوق بطلب "استمرار الرعاية الكريمة"، يختتم فورستر التماسه بالكلمات التالية: "هذا ما يطمح فيه بكل خشوع جيورج فورستر، أحد رعايا سموكم الأميري والمسؤول عن مكتبة الجامعة." يمكن تلخيص الفرق في عبارة: كان فورستر أحد الرعايا الذين تنمحي إرادتهم السياسية أمام سلطة الأمير، أما جوته فكان يتصرف بصورة متكافئة حتى وإن كان يرغب في الحفاظ على لعبة التقاليد.

إن كان جوته، شاعر فايمر، قد قبل لعبة التقاليد تلك ببساطة، فلربما كان ذلك أصعب بالنسبة لفورستر. على أية حال فقد وصلنا الرد الجريء الذي أرسله أبوه إجابة على حاجب الملك عندما سأله إذا كان حفل الاستقبال لدى الملك فريدريش الكبير في قصر "سانسوسي" قد أبهره، حيث قال له: إنه معتاد على مثل تلك الأمور، وإنه قد قابل خمسة ملوك شرسين واثنين أليفين في أوروبا. وتلك القصة تذكرنا بقدرة الرجلين اللذان ارتحلا حول العالم على الملاحظة الفائقة، فقد قابلا ملوكًا في طرف العالم الآخر، وتعرفا على مجتمعات وتصورات أخلاقية متباينة، وتنفسا هواء العالم البعيد، مما جعل هواء المراسم الخانقة في بلاط ملوك أوروبا لا يطاق بالنسبة لهما. "كل شيء هنا فارغ وسطحي، وفوق ذلك معوج. وهذه هي النتيجة الطبيعية للتصورات الفكرية الخانقة"، هكذا كان فورستر يشكو من الأوضاع في ماينتس.

رحلة الراين مع هومبولد كانت تتيح تغييرًا مؤقتًا، ولكنها من الناحية المالية كانت فشلًا زريعًا. كان فورستر يرجو أن يجد وصفه للنباتات الذي أعده في أثناء رحلته حول العالم ناشرًا يدفع قدرًا مناسبًا من المال مقابله، إلا أن هذا الرجاء "لم يتحقق تمامًا". ثم توجه فورستر في فبراير/ شباط بوصفه "خادمًا خاضعًا" إلى الملك فريدريش فيلهلم الثاني ملك بروسيا بالتماسه، فلا يوجد من يرجو منه "دعمًا كريمًا" لما أعد من وصف للنباتات سواه، إلا أن رجاءه ذلك باء أيضًا بالفشل.

وعندما عاد إلى عمله اليومي في ماينتس، عاد في الأشهر التالية من عام 1791 إلى نفس الحال المزعج. كتب فورستر "وكأن قد قدّر لكل ما يقع تحت يدي أن يتحول إلى ماء، فلا شيء يفلح؛ وكلما عملت أكثر، تمنيت النجاح أكثر، وفشلت أكثر. واليوم أقف خاوي اليدين، غير قادر على العمل كما كنت فيما مضى، إلا أني مضطر لاستئناف جهودي الماضية حتى أكسب عيشي"، رغم أنه كان غزير الإنتاج: فبجانب كتابته لمشاهد نيدرراين، ترجم فورستر المسرحية الهندية "ساكونتالا" التي وجد ترجمة إنجليزية لها مصادفة في أثناء رحلته، كما كتب مقالات مهمة عن "المصداقية التاريخية" أو "ضغوط جماعة العلماء"، كما كتب في ذلك العام وحده عرضًا وتعليقًا على عشرين كتاب، وكتب تاريخ الأدب الإنجليزي الذي تطلب منه عملًا مكثفًا، وهذه مجرد أمثله لأعماله. إلا أنه كان يشكو قائلًا: "لقد أنهكت قواي، ولم يعد جسدي قادرًا على تحمل المجهود، وأصيب عقلي بالشلل ...".

لم يكن ينقصه الكثير حتى يصبح من المشاهير المحليين، لكنه كان سجينًا بين أرفف كتبه المتربة ومشتت بسبب موافقاته الكثيرة على الكتابة لدور النشر والتي كان بالكاد يستطيع الوفاء بها. كان يقبل عملًا "فوق طاقته دون أن يفكر في أن ذلك قد يمرضه، ودون أن يحسب حسابًا للوقت الذي يتطلبه عرض الكتب." كان يمكن لحياته وأفكاره أن تذوب في مجريات يومه، ولم تكن تظهر عليه أي علامات لذلك الاضطراب الذي كان ينعشه، وكان يلاحظه في مناطق أخرى أثناء رحلته عبر الراين. "أسبح في الراين وأدع حياتي تمر هكذا"، وفقًا لما كتب في أغسطس/ آب 1791 لياكوبي.

ولكن بعد عدة أشهر اختلف كل شيء. منذ اليوم الأول للثورة الفرنسية في 14 يولو/ تموز 1790 ازدادت التوترات في السياسة الداخلية والخارجية. ورغم تردد أهل بروسيا والنمسا المناهضين للثورة في الخروج بقوات ضد فرنسا للدفاع عن السلطة القائمة، إلا أن بعض أعضاء التجمع الوطني اليعقوبيين في باريس وكذلك الملك لودفيج الرابع عشر أعلنوا في نهاية عام 1791 رغبتهم في خوض الحرب. ونظرًا للحالة السيئة للقوات الفرنسية كان الملك يرجو أن تؤدي هزيمة فرنسا إلى إنهاء الاضطرابات الثورية وإنقاذ ملكه للأبد. في 20 أبريل/ شباط 1792 أعلنت النمسا وحليفتها بروسيا الحرب.

وبتغير السياسة الخارجية لفرنسا منذ نهاية عام 1791 كان لدى الثوريين تصور التوسع الثوري، لذا بحث المؤيدون اليعقوبيون للحرب تأمين وتوسيع النظام الجمهوري. وكان المتطوعون من بين الجنود الفرنسيين بمثابة دُعاة أو حتى رسل الحرية. وقد أحدث ذلك حراكًا في المناطق الحدودية. سريعًا وصل الفرنسيون إلى الراين. "المكان بين ماينتس وكوبلنتس أصبح يعج بالفرنسيين"، حسب ما كتب فورستر في أبريل/ شباط 1792. "امتلأت منطقة راينجاو عن آخرها بهم، كل المطاعم امتلأت بهم، مما جعل أهل ماينتس غير قادرين على الاستمتاع بحياتهم. ولكن كان يمكن تحمل ذلك. ولكنهم وحدهم يتسببون في ارتفاع أسعار كل شيء بالنسبة لنا؛ كل شيء أصبح يتكلف ضعف سعره ..." وأصبح هناك شعور متزايد بتأثير التوسع الفرنسي. "بدأ وضعنا يصبح حرجًا"، كما كتب فورستر في 17 أبريل/ شباط. وبعدها بأيام كتب وهو ينظر من مكتبه عن الرفض المتنامي للفرنسيين الذي بدأ في ماينتس: "لا يمكن هنا التفكير في أي شيء أدبي. قريبًا سيصنعون من محاريثنا أسنة لرماحهم؛ لأن لهجة المرء في الحديث عن فرنسا تزداد يومًا بعد يوم حدة ورفضًا." وبنهاية الشهر كانت الأمور قد وصلت إلى ذروتها: "أُعلنت الحرب..."

ورغم أن ماينتس كانت آمنة ولم يكن هناك داعٍ للقلق، فالحرب لن تدور في تلك المنطقة، إلا أن فورستر كان يتهيأ لما سيحدث: "الأمور التي لا نستطيع تغييرها، يجب أن نتركها تحدث، مثل العاصفة، والجليد، والثلج، والمطر، والطقس العاصف." في 21 أكتوبر/ تشرين الأول احتلت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال آدم ـ فيليب دو كوستين ماينتس. لم تدر تقريبًا أي معارك دفاعًا عن المدينة، مجرد تبادل محدود لإطلاق النار، وتفجيرات قصيرة ودون تبعات. ونظرًا لتفوق القوات الفرنسية قرر مجلس الحرب في ماينتس في 20 أكتوبر/ تشرين الأول الاستسلام غير المشروط. كان كثير من سكان ماينتس قد غادر قبل ذلك بعدة أيام، كما فعل الأمير، "الذي خرج في التاسعة والنصف ليلًا في هدوء بعد أن أزاح الرايات من فوق عربته". وبذلك تغيرت الأمور. "نحن هنا منذ الأمس في قبضة الفرنسيين"، هذا ما كتبه فورستر مع ملاحظات أخرى لناشره الجديد كرستيان فريدريش فوس في "السادسة صباح" يوم الاحتلال. وفي نفس اليوم كتب خطابًا آخر يطلب فيه تقييمًا لما يعنيه الاحتلال الفرنسي: "ستصبح ماينتس الآن مركزًا سياسيًا مهمًا ...؛ لأن حملات الفرنسيين على ألمانيا تنطلق من هنا." ودون رغبة منه وجد فورستر نفسه في مركز الأحداث السياسية، وفي حين كان قبل أيام ضحية الملل بسبب حياته الرتيبة، رأى نفسه الآن شاهدًا على واحدة من "أهم حقب تاريخ العالم". خاطب فورستر مواطنيه قائلًا: "إن ألمانيا، التي تتبع خطانا، والتي هي العالم الذي يصنعنا"، تحتاج إلى أعمال.

وفي حين كان حتى تلك اللحظة مجرد متفرج على التحولات الثورية، أتيحت له الفرصة للمشاركة في صنع التاريخ. كان فورستر قبل أشهر منزويًا، ولكنه أصبح الآن يقول إنه لا يرغب في "الدعوة إلى انقلاب، لا أتمناه، وإنما في العمل على منع كارثة كبيرة تحدق بألمانيا." ورغم اعترافه بأنه "كان يفضل أن يكون مع وليس ضد اليعقوبيين ...، حتى وإن كان المرء يعبر عن غضبه منهم كما يشاء،" إلا إنه كان مقتنع بأن ألمانيا "لم تنضج بعد بما يكفي" لتغيير دستورها. ولكن ماينتس أصبحت الآن تحت احتلال الفرنسيين. وببلوغ شهر نوفمبر/ تشرين الثاني كانوا قد احتلوا المنطقة إلى يسار شاطئ الراين بين لانداو وبينجن، وعلى يمين الراين كانت المنطقة المحتلة لها حدود متخيلة من فرانكفورت على نهر الماين وفريدبرج وفايلبورج وليمبورج وناشتيتن وصولًا إلى لورش. وانفتحت أمام فورستر لحظة تاريخية عالمية لكي يفعل هنا وبصورة مصغرة ما لم يكن باقي ألمانيا قادرًا على فعله بعد، إذ أصبح بإمكان فورستر أن يعترف بأنه "لم يكن يومًا عدوًا للحرية" وأنه من غير الممكن محاربة الحرية". تغيرت الأوقات وإذا بفورستر يجد عند القوات الفرنسية نفس تلك المساواة التي أبهرته في تاهيتي: "الضباط والجنود يتعاملون مع بعضهم البعض وكأنهم إخوة، قلب واحد وروح واحدة، ويأكلون معًا على مائدة واحدة في المطاعم." أما المراسم الفارغة لدى أصحاب السلطة فلم تؤد إلى شيء. يتمسك النبلاء في خوفٍ بمزاياهم المتناقصة، كما يقول فورستر في تعليقه اللاذع: "الجُبن وحياة النبلاء بدءا يصبحان مترادفين

..." جاء وقت العمل، وعرف فورستر أن "الأزمة تقترب ويجب على المرء أن يتخذ موقفًا". وهكذا أصبح فورستر ثوريًا.